الاستعمار الممنهج لمحو الثقافة الإسلاميّة في شمالي نيجيريا

د. علي محمد الأحمر[1]

الملخّص

لقد وجد المستعمرون البريطانيّون الإسلام في شمالي نيجيريا ليس دينًا متمكّنًا في النفوس فحسب؛ بل قوةً حاكمة، ودولةً مسلمة؛ فقاموا بكلّ ما يمكن أن يقوموا به في سبيل القضاء على آثار الإسلام، واستبدلوا القانون بالشريعة، والحرف اللاتيني الأجنبي بالحرف العربي، بل وما غادروا البلاد إلّا وتركوا فيها بَصماتهم، وسلبوا من الشعب سماتهم، فمن هنا استمرّ الحكم والسياسة، والثقافة والحياة الاجتماعيّة على ما وضعوه، فعلى هذا يهدف هذا البحث إلى بيان آثار الاستعمار البريطاني على الواقع الإسلامي بطريقةٍ ممنهجةٍ في شمالي نيجيريا، فأورد وضع شمالي نيجيريا قبل الاستعمار، ودخول الاستعمار إلى إفريقيا عمومًا، وإلى شمال نيجيريا خصوصًا، ثم بيّن دوافع الاستعمار، وأثره على الحياة الاقتصادية والثقافية والسياسية والاجتماعية في شمالي نيجيريا. وبمساندة بعض الأطراف في إفريقيا اتّجهت بريطانيا نحو إنشاء إمبراطوريةٍ إفريقيةٍ للسيطرة على مستعمَرات من إفريقيا، وتم الاتفاق عام ١٨٩٠م بين فرنسا وانجلترا حول شمالي نيجيريا. وبناءً على هذا، فإنّ الورقة ستركز على صلة الاستعمار بمحو ثقافة الإنسان النيجيري الدينية، مركزةً على المنطقة الشمالية بوصفها بوتقة المواجهة الحضارية بينها وبين الاستعمار الغربي.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار، نيجيريا، الثقافة، الإسلام، بريطانيا.

---

١. نائب رئيس جامعة الحاج محمود كعت للغات والعلوم والتربية، وأستاذ العقيدة بجامعة ميدغري نيجيريا.

وضع شمالي نيجيريا قبل الاستعمار

شمالي نيجيريا أو المنطقة الشمالية بالإنجليزية The Northern Region «وكان قسمًا مستقلاً داخل نيجيريا، يختلف اختلافًا واضحًا عن الجزء الجنوبي من البلاد، مع تقاليد مستقلةٍ وعلاقاتٍ خارجيةٍ وهياكل أمنية، ففي عام ١٩٦٢م، استحوذت المنطقة على أراضي شمالي الكاميرون البريطانية، والتي أصبحت مقاطعةً داخل شمالي نيجيريا بعد التصويت، وهي الآن مجموعةٌ من الولايات في الجانب الشمالي من دولة نيجيريا تتّحد مع بعضها في الموقع الجغرافي واللغة والدين غالبًا، وفي عام ١٩٦٧م، تم تقسيم شمالي نيجيريا إلى الولاية الشمالية الشرقية، والولاية الشمالية الغربية، وولاية كانو، وولاية كادونا، وولاية كوارا، وولاية بلاتو، ولكلّ منها حاكمها الخاصّ، وعلى الرغم من أنّ شمالي نيجيريا منطقةٌ متنوعةٌ عرقيًّا ودينيًّا، إلّا أنّها منطقة ذات أغلبيةٍ ساحقةٍ من المسلمين تهيمن الهوسا والفولاني والنوبي على معظم الجزء الشمالي الغربي والشرقي من البلاد. والهوسا فولاني هم في الغالب من المسلمين. يلتزم جزء صغير من سكّان الهوسا أيضًا بالدين القديم للروحانية الهوسا»[1].

وقد كان الشمال النيجيري مسرحًا للاستعمار البريطاني، حيث اختلف الشمال عن الجنوب النيجيري في العديد من العوامل على النحو الآتي:

العامل الأول: جغرافي، حيث كانت المنطقة الشمالية تبعد عن الساحل الذي تجاوره دول الجنوب من أمثال لاغوس وغيرها.

العامل الثاني: ديني، لأنّ المنطقة الشمالية متجذرةٌ في الدين منذ ما يربو على خمسمائة عام، أمّا المنطقة الجنوبية فهي منطقةٌ وثنيةٌ في أغلب الأحوال ممّا جعلها لقمةً سائغةً للاستعمار الأجنبي.

العامل الثالث: حضاري، وصلة هذا العامل بالذي سبقه واضحة؛ إذ إنّ الدين الذي اكتسح الشمال النيجيري وضع بصمةً حضاريةً على سكّان تلك المنطقة ممّا جعلهم على قدرٍ كبيرٍ من التحضّر الذي يجعلهم قادرين على التمييز بين الغثّ والسمين، والنافع والضار، والأصيل والدخيل من الثقافات، وجعل لهم درعًا ومناعةً من كلّه ما يواجهونه في حياتهم، إضافةً إلى البديل الحضاري

1. nationsonline.org، klaus kästle-. «Islamic world, countries with a cultural Islamic population - Nations Online Project». www.nationsonline.org (بالإنجليزية الأمريكية). Archived from the original on *2022-04-03*. Retrieved *2022-04-06*.

الذي يقدّمه لهم لقاء ما تقدّمه لهم ثقافة المستعمِر الجوفاء التي يرونها في الغالب حياة بلا قيمة، ويتبرّأون منها، ومن ثم فإنّ الورقة ستركّز على صلة محو الاستعمار لثقافة الإنسان النيجيري الدينية، مركزةً على المنطقة الشمالية بوصفها بوتقة المواجهة الحضارية بينها وبين الاستعمار الغربي.

«كما يرى بعض المؤرّخين أنّ قومًا من شمال إفريقيا، وهم برابرة مسلمون أتوا من المغرب، ووصلوا في القرن الثامن الهجري إلى الإقليم»[١]. «واعتنق سلطان كانم حينها الإسلام على أيديهم، وازدهر الإسلام ازدهارًا كبيرًا تجاوز حدود إمبراطوريتهم؛ إذ بدأ الدعاة يتوجّهون نحو ملوك (هوسا) في شمالي نيجيريا وزعماء القبائل يدعونهم إلى الإسلام. وقد نجحوا بالفعل في كسب الممالك الكثيرة إلى الإسلام وبنوا في ممالكهم المساجد، كما قاموا بدور تعليم اللغة العربية والمبادئ الإسلامية في مجالسهم العلمية وتعليم القرآن للأطفال»[٢].

وتبعًا لروايةٍ متداولةٍ عند الهوسا، يقال: «إنّ شخصًا عرف باسم (أبي يزيد الفزاري)، وكان يدعو للإسلام في كانم وبرنو في نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلادي، وقد ارتبط اسمه في برنو باسم أسرة (مسبعرمة)، وهي الأسرة التي وفد عددٌ كبيرٌ من أعضائها إلى برنو في القرن الرابع عشر، والخامس عشر الميلاديين. ويقال إنّها جاءت من فزان (في الجنوب الغربي من ليبيا)، أو من وادي النيل، وكانت أسلاف عددٍ كبيرٍ منه العلماء في برنو ومن الوزراء البرنويين، ويطلق على جميع أفراد هذه الأسرة [مسبعرمة]. وهذه التسمية لقب معناه في برنو الوزراء الوارثون»[٣].

وجاء في مخطوطةٍ عربيةٍ ترجع كتابتها إلى الفترة ما بين ١٦٥٧ و١٦٦٩م، في تمبكتو عثر عليها الفرنسي (دوميزيير): «أنّ أربعة جنودٍ من جيش عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي (٩٩ ـ ١٠١ هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠ م)، جاءوا من اليمن إلى برنو، واستطاعوا أن يكوّنوا أسرةً مالكةً في برنو وغيرها من بلاد السودان»[٤].

---

١. جوان جوزيف، الإسلام في ممالك وامبراطوريات أفريقيا السوداء، ص ٨١.

٢. طرخان، إبراهيم، دولة مالي الإسلامية، ص ٦٥.

٣. أورد بالمر ترجمة مخطوطة عربية في كتابيه «The Sudanese Memoirs وthe Bons Shara and Sudan»، وهذه المخطوطة عبارة عن رسالة أصدرها الملك أومي عبد الجليل الذي حكم من حوالي عام ١٠٨٦ إلى عام ١٠٩٧م، موجهة إلى أبنائه وخلفائه من بعده، ويعرف هذا المرسوم في المصطلح العربي البرنوي باسم محرم، ويتضمن معلوماتٍ عن دحول الإسلام إلى برنو.

٤. مجلة التاريخ العربي – الإسلام في النيجر بين الماضي والحاضر، ص ٣٣.

وخلال القرن التاسع الميلادي وما يليه، جاءت وفود المسلمين المهاجرين عبر الصحراء نحو الجنوب منهم قبائل التيبو أو التدا، الذين هاجروا إلى كانم حوالي عام ٨٠٠ م، واستأذنوا سلطانها بالإقامة هناك.

والواضح من هذه الشواهد أنّ الشطر الشرقي من إمبراطورية البرنو، وهو كانم، قد اعتنق الإسلام قبل القسم الغربي وهو برنو. يقول بفر: «اعتنق أهل كانم الإسلام قبل البرنويين». ويقول أوفوي: انتشر الإسلام في كانم وبرنو حوالي عام ١٠٠٠م.

ويضاف إلى ذلك «أنّ الإسلام دخل برنو على يد الفاتحين الكانميين الذين كانوا يعتنقونه منذ مدة طويلة، وأنّ عدد الداخلين في العقيدة الجديدة يزداد يومًا بعد يوم، وأنّ مدنًا إسلامية اشتهرت مثل مدينتي مارغي وماندرا بسبب اعتناقها الإسلام»[١].

وحجة هؤلاء هي التراث الشفهي المتناقل، والذي يرى أنّ مؤسس مملكة (كانم) في القرن الثامن اسمه تبع الأول، وهو أول من نشر الإسلام في جنوب الصحراء الإفريقية.

وبناءً على الأقوال السابقة، تبيّن «أنّ الإسلام قديمٌ في غرب إفريقية عامة وشمال نيجيريا خاصة. وبعبارة أخرى، لم يدخل تلك البلاد لأول مرة في القرن الحادي عشر الميلادي على القول الثاني، بل دخله في القرن السابع الميلادي -يعني القرن الأول الهجري- على الأرجح، ويمكن حمل القول الثاني على انتشاره في كلّ المنطقة بأكملها. وعلاوةً على هذا، يمكن القول بأنّ الصلات المتنوعة القديمة القائمة بين بلاد السودان الأوسط والغربي وبين البلاد الإسلامية في وادي النيل وما والاه شرقًا، وشمالي إفريقيا كانت ذات أثرٍ كبيرٍ في وصول الإسلام والتعريف به في بلاد السودان قبل حركات المرابطين فيها»[٢].

١. مجلة التاريخ العربي - الإسلام في النيجر بين الماضي والحاضر- المصدر السابق.

٢. مجلة الإسلام اليوم، إصدار منظمة الإيسيسكو، ص ٩١.

تاريخ الاستعمار في نيجيريا

«تشير المستعمرة النيجيرية إلى حقبةٍ في تاريخ نيجيريا عندما حكمت بريطانيا منطقة غرب إفريقيا منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى تحقق الاستقلال في عام ١٩٦٠»[١].

بدأ النفوذ البريطاني في المنطقة مع حظر تجارة الرقيق على الرعايا البريطانيين عام ١٨٠٧. «حيث ضمت بريطانيا لاغوس وهي العاصمة الاقتصادية لنيجيريا عام ١٨٦١م، وأسّست محمية نهر النفط عام ١٨٨٤م، وازداد النفوذ البريطاني في منطقة النيجر تدريجيًا خلال القرن التاسع عشر، لكن بريطانيا لم تحتل المنطقة بشكل فعال حتى عام ١٨٨٥. حيث اعترفت قوى أوروبية أخرى بهيمنة بريطانيا على المنطقة في مؤتمر برلين عام ١٨٨٥»[٢].

«ومنذ عام ١٨٨٦ وحتى عام ١٨٩٩م، كانت معظم البلاد محكومةً من قبل شركة النيجر الملكية بموجب ميثاق، وحكمها جورج توبمان غولدي. في عام ١٩٠٠، انتقلت محمية جنوب نيجيريا ومحمية شمال نيجيريا من أيدي الشركة إلى التاج. بناءً على دعوة من الحاكم فريدريك لوغارد، دُمِج الإقليمان كمستعمرة ومحمية نيجيريا، مع الحفاظ على استقلاليةٍ إقليميةٍ كبيرةٍ بين المناطق الرئيسية الثلاث. نصّت الدساتير التقدّمية بعد الحرب العالمية الثانية على زيادة التمثيل والحكم الانتخابي من قبل النيجيريين. استمرّت الفترة الاستعمارية في نيجيريا منذ عام ١٩٠٠م، حتى عام ١٩٦٠م، وبعد ذلك حصلت نيجيريا على استقلالها»[٣].

«فرضت بريطانيا حكومة مستعمرة التاج على منطقة غرب إفريقيا، التي أصبحت تعرف باسم نيجيريا، من خلال تسلسلٍ تدريجيّ للأنظمة، وهو شكلٌ من الحكم كان أوتوقراطيًا وبيروقراطيًا على حد سواء. بعد اعتماد نهج الحكم غير المباشر في البداية، في عام ١٩٠٦، دمج البريطانيون مستعمرة لاغوس الصغيرة ومحمية جنوب نيجيريا في مستعمرة جديدة لجنوب نيجيريا، وفي عام ١٩١٤، دُمِجت هذه المستعمرة مع محمية شمال نيجيريا لتشكيل مستعمرة ومحمية نيجيريا.

1. "Nigeria - Independent Nigeria". Encyclopedia Britannica (بالإنجليزية). Archived from the original on 2019-11-10. Retrieved 2020-01-22.

2. John M. Carland, The Colonial Office and Nigeria (1985) , pp. 1–2. "Crown Colony Government in Nigeria and elsewhere in the British Empire was autocratic government. Officials at the Colonial Office and colonial governors in the field never pretended otherwise. In fact, autocratic, bureaucratic rule was the true legacy of British colonial government in Africa."

3. Carland (1985)، The Colonial Office and Nigeria, p. 48.

أُجريت الإدارة والسيطرة العسكرية على الإقليم بشكل أساسي من قبل البريطانيين البيض، في كلٍّ من لندن ونيجيريا. بعد الغزو العسكري، فرض البريطانيّون نظامًا اقتصاديًا مصممًا للاستفادة من العمالة الإفريقية. كان الأساس الجوهري لهذا النظام هو اقتصاد المال -وتحديدًا الجنيه الإسترليني البريطاني- والذي يمكن المطالبة به من خلال الضرائب، ودفعه إلى السكّان الأصليين المتعاونين، وفرض الغرامات به. أدّى اندماج المجموعات العرقية والدينية المختلفة في اتّحادٍ واحدٍ إلى خلق توتراتٍ داخليةٍ استمرت في وجودها في نيجيريا حتى يومنا هذا»[1].

وفي القرن الثامن عشر، كان للإمبراطورية البريطانية وقوى أوروبية أخرى مستوطناتٌ وحصونٌ في غرب إفريقيا، لكنّها لم تنشئ بعد مستعمرات مزارع كاملة كالتي وجدت في الأمريكيتين. كتب آدم سميث في عام ١٧٧٦ أنّ المجتمعات الإفريقية كانت أفضل وأكثر اكتظاظًا بالسكّان من تلك الموجودة في الأمريكيتين، وبالتالي خلقوا حاجزًا أكبر أمام التوسّع الأوروبي.

«العناصر السابقة المتعلّقة بذلك كانت تأسيس مستعمرة في سيراليون في عام ١٧٨٧م، كملاذٍ للعبيد المحرّرين، والحركة التبشيرية المستقلّة التي هدفت لجلب المسيحية إلى مملكة إيدو، وبرامج الاستكشاف التي رعتها الجمعيات والمجموعات العلمية، مثل الجمعية الإفريقية في لندن»[2].

أدرك القادة المحلّيون، مع كونهم على علمٍ بالوضع في جزر الهند الغربية والهند وأماكن أخرى، مخاطر التوسّع البريطاني. شرح رئيس مملكة بوني في عام ١٨٦٠م، أنّه رفض معاهدة بريطانية بسبب الميل إلى حثّ الرؤساء على التوقيع على معاهدةٍ لم يفهموا معناها، ومن ثم الاستيلاء على البلاد.

وقد بدأت تجارة الرقيق الأوروبية من غرب إفريقيا قبل عام ١٦٥٠م، حيث أُخِذ الأفراد بمعدل نحو ٣٠٠٠ فرد سنويًا. ارتفع هذا المعدل إلى ٢٠٠٠٠ في السنة في الربع الأخير من القرن. كانت تجارة الرقيق أثقل في الفترة بين عامي ١٧٠٠ و١٨٥٠م، بمتوسّط ٧٦٠٠٠ شخص يُنقلون من إفريقيا كلّ عام بين ١٧٨٣ و١٧٩٢م، في البداية، كانت التجارة تتمحور حول غرب ووسط إفريقيا،

1. Ken Swindell, «The Commercial Development of the North: Company and Government Relations, 1900–1906», Paideuma 40, 1994, pp. 149–162.

2. Robin Hermann, «Empire Builders and Mushroom Gentlemen: The Meaning of Money in Colonial Nigeria», International Journal of African Historical Studies 44.3, 2011.

وتمثّل الكونغو في العصر الحالي، لكن في القرن الثامن عشر، أصبح خليج بينين (المعروف أيضًا باسم ساحل العبيد) المركز التالي الأكثر أهمية، وكانت ويدة (الآن جزء من بينين) ولاغوس الموانئ الرئيسة على الساحل. من ١٧٩٠-١٨٠٧.

واستمرّت التجارة في وقتٍ لاحق تحت سيطرة البرتغاليين، في خليج بيافارا، وكانت الموانئ الرئيسة هي كالابار القديمة (أكوا أكبا)، وبوني، وكالابار الحديثة. واعتبارًا من عام ١٧٤٠م، كان البريطانيون هم تجار الرقيق الأساسيين في هذه المنطقة. في عام ١٧٦٧م، سهّل التجّار البريطانيّون مذبحةً جهريةً لمئات الأشخاص في كالابار بعد دعوتهم إلى سفنهم، ظاهريًّا لتسوية نزاعٍ محلّي. في عام ١٨٠٧م، سنّ برلمان المملكة المتحدة قانون تجارة الرقيق، الذي حظر على الرعايا البريطانيين المشاركة في تجارة الرقيق. ضغطت بريطانيا بعد ذلك على القوى الأوروبية الأخرى لوقف تجارة الرقيق أيضًا. أبرمت معاهدات مناهضة للعبودية مع قوى غرب إفريقيا، والتي فرضتها عسكريًا. تضمنت بعض المعاهدات حظرًا على الدبلوماسية الممارسة دون إذن بريطاني، أو وعود أخرى بالتقيد بالحكم البريطاني. قدّم هذا السيناريو فرصةً للبعثات البحرية والاستطلاعية في جميع أنحاء المنطقة، ضمت بريطانيا أيضًا فريتاون في سيراليون، وأعلنت أنّها مستعمرةٌ للتاج في عام ١٨٠٨م.

أدّى الانخفاض في التجارة بشكلٍ غير مباشرٍ إلى انهيار دول مثل إمبراطورية إيدو. انسحبت بريطانيا من تجارة الرقيق عندما كانت الناقل الرئيس للعبيد إلى الأمريكيتين. ألغى الفرنسيّون العبودية بعد الثورة الفرنسية، على الرغم من أنّها أعادت تأسيسها لمدّةٍ وجيزةٍ في مستعمراتها الكاريبية تحت حكم نابليون. باعت فرنسا لويزيانا إلى الولايات المتحّدة في عام ١٨٠٣م، وهو العام نفسه الذي تخلّت فيه عن محاولة استعادة سانت دومينغو. بحلول نهاية الحروب النابليونية، أنهت العبودية في ممتلكاتها. بين الحروب، اشترى الفرنسيون والبريطانيون غالبية العبيد الذين بيعوا من موانئ إيدو. عانى الاقتصاد من الانخفاض في تجارة الرقيق، على الرغم من استمرار تهريب العبيد إلى الأمريكيتين لسنوات بعد ذلك»[1].

أصبحت لاغوس ميناء رقيقٍ رئيسًا في أواخر القرن الثامن عشر، وفي خمسينيّات القرن التاسع عشر. كان الكثير من الاتّجار بالبشر الذي حدث هناك غير قانوني اسميًّا، والسجلات من هذا الزمان والمكان ليست شاملة. وفقًا لقاعدة بيانات رحلات تجارة الرقيق عبر الأطلسي، بيع ٣٠٨٨٠٠ عبر

1. Carland, The Colonial Office and Nigeria (1985)، p. 90.

المحيط الأطلسي من لاغوس في ١٧٧٦-١٨٥٠. كان للتجار البريطانيين والفرنسيين نصيبٌ كبيرٌ من هذا العمل حتى عام ١٨٠٧م، عندما استُبدِلوا بالبرتغاليين والإسبانيين. بحلول فترة ١٨٢٦-١٨٥٠، تدخلت البحرية الملكية البريطانية بشكل كبير مع صادرات الرقيق من لاغوس.

هل كان الغزو البريطاني لنيجيريا نتاجًا عن دافعٍ خيري لإنهاء العبودية، أو دوافع أقوى متمثلة في الثروة والسلطة؟ يظلّ هذا الأمر موضع نزاعٍ بين المؤرّخين الأفريقيين والأوروبيين. ظلّ العديد من السكّان المحلّيين غير مقتنعين بسلطة التاج لعكس الخصائص القانونية والأخلاقية للمؤسّسة الاجتماعية بالكامل من خلال مراسيم معينة. بغضّ النظر عن ذلك، فقد أهلكت العبودية السكّان، وغذّت العسكرة والفوضى؛ ممّا مهّد الطريق لاستعمار أكثر عدوانية، كان إرثَ قرنٍ من الاستعمار الإنجليزيّ، بعد مئةِ عامٍ من احتلال نيجيريا، أكبرِ دول القارّة السمراء من حيث عددِ السّكّان. وخلال تلك الفترة استنزف الرّجلُ الأبيضُ خيراتِ البلاد خدمةً لاقتصادِه. وعندما نال النيجيريون استقلالهم، كان استقلالاً مثقَلاً بأعباءِ قرنٍ كاملٍ من الاحتلال، وبإرثٍ من لغة المستعمِر، ودينِه، ونظامِ تعليمِه وثقافتِه.

دوافع الاستعمار، وأثره على الحياة الاقتصاديّة والثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة في شمالي نيجيريا

إنّ دوافع الاستعمار البريطاني نبتت من صميم الواقع البريطاني، ولم تنفّذ إلاّ بعد دراسةٍ عميقةٍ لمقتضيات المصالح البريطانية، فالتقدّم الصناعي الذي حازته إنجلترا من القرن التاسع عشر، بينما كانت بقية دول أوروبا في زحمة حوادثها الخاصة هو الذي وجّه أنظار البريطانيين نحو الخارج.

تراوحت السياسة الاستعمارية لبريطانيا بين منهجين: منهج السلم في المناطق الشمالية من سيراليون، وغانا، وبعض بقاع اليوروبا في نيجيريا. ومنهج القوة في مناطق أخرى خاصة في نيجيريا الشمالية.

اعتمدت بريطانيا أساليب مختلفةً في محاولتها الزحف على مجمل مناطق نيجيريا، وكان للمبشّرين والقناصل وحكومة لاغوس دورٌ في نجاح الاستعمار البريطاني لمناطق اليوروبا، بحيث كانت لاغوس نقطة الانطلاق نحو أغلب بلاد اليوروبا التي ترى أنّها في حاجةٍ إلى المعاهدات التي أبرمتها بريطانيا، وأنّها تقضي جزءًا كبيرًا من مصالحها الخاصة، وأنّها في إطار السلم. وقد أتت الحاجة لبريطانيا في انتهاج سياسة الحرب عندما وجدت المقاومة في منطقة ايجيبو حيث جرت

معركةٌ بين الطرفين كسبتها بريطانيا لتطوّرِ أسلحتها؛ ولذلك لم تجد بعض المناطق الأخرى من اليوروبا أبيوكوتا، وإيبادان إيكيتي، وإيجيسا الأويو خيارًا آخر غير الخضوع للاستعمار البريطاني في الفترة الممتدة بين ١٨٩٣ و١٨٩٩م.

واختلف زعماء منطقة الدلتا الخاصة بنهر النيجر في نيجيريا فيما بينهم حول مسألة الخضوع للاستعمار البريطاني؛ فتشبث بعض القادة في حقّهم في ممارسة السيادة في مناطقهم، وتنظيم أنشطتهم التجارية بأنفسهم دون تدخّلٍ من الأطراف الأخرى؛ لذا واجهوا المبشّرين والقناصل البريطانيين.

وكان الملك جاجا حاكم الأبوبو من أشهر القادة الذين وقفو في وجه الاستعمار البريطاني آنذاك، وتشبّث بموقفه مطالبًا بدفع التجّار البريطانيين الرسوم إلى أن اتّهم بالإخلال بمعاهدة بريطانيا وعرقلة نشاطهم التجاري، فحوكم في أكرا (عاصمة غانا)، ونُفي إلى جزر الهند الغربية عام ١٨٨٧م، وكان ذلك بعد إيهامه من طرف القنصل البريطاني جونستون أنّهم سيقومون باجتماع، ويغادر بعد انتهائه. وبعد هذه الأحداث لم يكن لدول الدلتا إلّا قبول بريطانيا، وأنشئت اللجنة التي فرضها القنصل جونستون.

وهنا يمكننا بشيءٍ من التسامح أن نقسّم دوافع الاستعمار الأوروبي إلى عدّة فئات: دوافع اقتصادية، ودوافع ثقافية، ودوافع سياسية، ودوافع اجتماعية، ومنها التنافس بين الدول الكبرى للسيطرة على الدول الأضعف، وتحقيق نفوذ عالمي، والصراع للهيمنة على الطرق التجارية، والمناطق الاستراتيجية في جميع أنحاء العالم.

أ. الدوافع الاقتصاديّة:

الدوافع الاقتصادية تؤدّي دورًا مهمًا في تحريك عجلة الاستعمار، حيث تسعى الدول المستعمرة للحصول على موارد الصناعة، وإيجاد مراكز تجارية لتسويق الإنتاج، وتأمين وسائل النقل، وتوفير العمالة بتكاليف منخفضة. كما تستخدم الدول المستعمرة سياسات الاستغلال الاقتصادي والضرائب الباهظة للسكان المحليين للاستفادة منهم.

واعتمدت بريطانيا في غزوها لنيجريا الشمالية على الشركة الإفريقية الوطنية Royal Niger Company ، التي أسّسها George Taubman في عام ١٨٧٩م، وكانت أهداف هذه الشركة هو

تعزيز السيطرة البريطانية على أقاليم النيجر، وفي عام ١٨٨٦م، صدر مرسومٌ ملكيٌّ ينصّ على صلاحيّة إدارتها لمنطقة حوض التشاد وبعض المناطق الأخرى الداخلية والساحلية، كما قام Taubman بمزيدٍ من التوغّل داخل نيجيريا من خلال إحداث عدة مراكز تجارية باتفاق مع الزعماء المحلّيين لنيجيريا الشمالية. وتغيّرت تسمية الشركة من (الشركة الإفريقيّة الوطنية) إلى (شركة النيجر الملكية)، ومثّلت أسابا العاصمة الإدارية لمدينة دلتا مركزًا لعملياتها.

ب. دوافع ثقافية ودينيّة:

لم تعد الدوافع الاقتصادية هي المسؤولة وحدها عن الاستعمار البريطاني لشمالي نيجيريا بقدر ما كان الدافع الثقافي والديني بكلّ ما يحملان في طيّاتهما من معاني تغيير نمط التفكير، والمعتقد، والفن، والتقاليد والعادات، وسائر مظاهر الحياة الثقافية من حيث المعمار، واللباس، وأدوات الطبخ، وغيرها.

فقد اتّسمت البيوت في الصحراء الكبرى ووسط القارة السمراء بشكلها المستدير المسقوف بجذوع الشجر. ولسعي الاستعمار لطمس الهوية المعمارية، تحوّلت تلك البيوت في العقود الأخيرة إلى صورةٍ ترمز للفقر يتنصل منها الأفارقة، وبالتالي أهملها الحرفيّون المهرة متوجّهين إلى أعمالٍ أخرى. بجانب ذلك أدّت فترات الاستعمار إلى إعاقة تطوير المعمار الأفريقي سواء في الشمالٍ الصحراوي الجاف أم الجنوب الغني بالألوان والموارد البيئية.

وكانت العمارة الإفريقيّة عُزِلت مع دخول الإسلام، ولأكثر من ألف عام، وبدءًا من القاهرة إلى الرباط هبوطًا إلى مالي وكينيا، اهتمت الحضارة الإسلامية ببناء المدارس والأسواق، وسبل الماء بجانب المساجد وملحقاته»[1].

ويمكن أن يلاحظ الدارس لتاريخ دخول الإسلام في نيجيريا فرقًا في التأريخ بين الأقسام الشمالية والجنوبية، لكن معظم المصادر التاريخية تذكر أنّ الإسلام بدأ يشقّ طريقه أكثر إلى المناطق المعروفة الآن بـ(نيجيريا) منذ القرن الثامن الميلادي عن طريق التجّار العرب المسلمين، الذين وفدوا إليها من الشمال الإفريقي عبر الصحراء الكبرى، وازداد انتشار الإسلام وعظم أمر المسلمين في القرن الثالث عشر الميلادي تأثرًا بنفوذ (الموحّدين) و(المرابطين) الذين أقاموا دولتهم في

1. Enlash Ron (1999) African Fractals Modern Computing and indigenous Design. ISSN 978-8135-2613-3.

المغرب العربي، وكان لانتشار الإسلام في الشمال النيجيري أثره على حياة السكّان الاجتماعية والثقافية، ممّا جعل لهم شخصيةً مميزةً في السلوك والعادات التي انطبعت بالطابع الإسلامي بعد أن كانت أسيرة المعتقدات الوثنية، إلى أن ظهر (الشيخ المغيلي) الذي فتح مدرستين عظيمتين في (كشنة)، و(كانو)، ولم يزل أثرهما رغم طغيان المادة، واشتداد أعاصير الظلام بالحروب التوسعية العادية، ورغم البدع الفاشية إلى أن ظهر (الشيخ عثمان بن فو)، وأخوه عبد الله مجددا الدين، ومعيدا له أنواره الآفلة، فحاربا في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، فأظهره الله على معظم بلاد نيجيريا شمالاً وغربًا، ولم يتمكن الإسلام من الوصول مبكرًا إلى الأجزاء الجنوبية من نيجيريا؛ بسبب كثافة الغابات التي تفصل بين الشمال والجنوب، الذي بدأ يتعرض لهجمات البرتغاليين والبريطانيين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي.

إضافةً إلى ذلك فقد سعى الاستعمار إلى استبدال الحرف الإنجليزي بالحرف العربي الذي كان سائدًا منذ ما يربو على خمسمائة عام في المنطقة، والذي يعبّر عن عراقة الإسلام وحضارة الإسلام في المنطقة، فقد كانت الرسائل والمخطوطات كلّها تكتب بالحرف العربي، فأوعز المستعمِر إلى الأهالي أن يكتفوا بالحرف اللاتيني في المراسلات والدساتير والإدارة وكلّ أنماط الحياة؛ ممّا جعل الحرف العربي غريبًا مع كونه الأعرق والأسبق إلى المنطقة.

أما على المستوى الديني فمنذ أن أبرمت بريطانيا اتفاق إلغاء تجارة الرقيق كانت السفن البريطانية تجوب ساحل نيجيريا بذريعة اعتراض السفن التي تحمل الرقيق، ثم تطلق سراحهم في ميناء فريتاون في سيراليون، حيث كان المنصِّرون البريطانيون يقومون بتعميد أعدادٍ كبيرةٍ من الرقيق المحرّرين لإدخالهم في النصرانيّة، وبعد ذلك يتم إعادة بعض منهم إلى بلدانهم الأصلية لتنفيذ مهمّة التنصير، فمن هنا تمّ إرجاء بعض النيجيريين المحرّرين الأرقاء إلى نيجيريا، فساعدوا البريطانيين في نشر النصرانيّة في المناطق الساحليّة، والجنوب الغربي من نيجيريا.

وقد كان التلاحم بين الجهد الاستعماري والمنصِّرين في استئصال الإسلام وحضارته في المنطقة في غاية الوضوح، حتى أنّ أحد حكّام الإنجليز قال في أحد المؤتمرات التنصيريّة: «إنّه يجب على الحكومة والمبشّرين أن يشتركوا في العمل ضدّ الإسلام»[١].

«والاحتلال البريطاني هو المساند الدائم للمنصّرين؛ حيث كانت بريطانيا سعت قبل التدخّل

١. السيد الشامي، المسلمون في مواجهة التبشير في نيجيريا، ص٧.

العسكري المباشر لإحكام السيطرة على البلاد من خلال الشركات التجاريّة والجمعيات التنصيريّة، لتكون حمايتها مبررًا للتدخّل المباشر، وهذا ما قد حصل بالفعل في نيجيريا.

فهناك علاقةٌ وثيقةٌ بين الاستعمار والتنصير في نيجيريا؛ فالتنصير والاستعمار وجهان لعملةٍ واحدة، فالمنصّرون هم الواجهة الدينية للمستعمر، والاستعمار هو الحقيقة الاقتصادية والسياسية للمنصرين. ولا شك في أنّ هدف الاستعمار الديني هو التنصير، وقد ارتبطت الحملات الاستعمارية بوجود بعثاتٍ وإرسالياتٍ تبشيريةٍ دينيةٍ، وقد نجح عددٌ منها في تنصير قطاعاتٍ من سكّان المستعمرات، وكان أبرز حالات النجاح في هذا المجال في الدول الإفريقية هو جنوب السودان وجنوب نيجيريا.

كما دعا المنصِّرون الاستعمار إلى احتلال البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، وعندما احتلت بريطانيا البلاد ذلّل المحتلون العقبات أمام المنصرين، واستطاعوا أن يقيموا مؤسّساتهم في بلاد المسلمين بكلّ سهولة، كما أنّ الحركة التنصيرية هي وليدةٌ لأطماعٍ استعماريةٍ صليبيّةٍ أسّسها الملك لويس التاسع عام ١٢٤٢م»[١].

«والمستعمرون أصدروا المراسيم والقوانين التي تسهل عمل المنصِّرين؛ إذ أمر الاستعمار البريطاني أن يكون التعليم في بعض المناطق إجباريًا، وتولت البعثات التنصيرية تعليم الطلاب في تلك المدارس، ولم تتوقف العلاقة بين حركتي التنصير والاستعمار عند نقطة المصالح المشتركة، بل نجد أنّ الأخلاقيات السيئة للاستعمار من قتلٍ وبطشٍ قد حصلت بمشاركة رجال الكنيسة»[٢].

«فالاستعمار ما هو إلّا حماية للتنصير، والتنصير ما هو إلّا غزو فكري وثقافي حتى يتسنّى للدولة الغربية السيطرة على العالم الإسلامي.

كما أنّ الاستعمار اليوم لم يحقّق الجلاء العسكري إلّا وقد حقّق أكبر أهدافه بفرض نفوذٍ مستمرٍ لن ينقطع مع هذه الوحدات التي استعمرها طويلًا، والمتمثّل في النفوذ الفكري والثقافي. فهذا يدلّ على العلاقة الوثيقة بين الاستعمار والتنصير»[٣].

ولكي تتجلّى حقيقة تلك العلاقة بين الاستعمار والمنصِّرين يقول اللورد بلفور وزير الخارجية

---

١. الجندي، أنور، الإسلام في وجه التغريب، ص ١٢٧-١٣٤.

٢. الميداني، عبد الرحمن حنبكة، أجنحة المكر الثلاثة، ص ١٧٩.

٣. لو شالتيبيه، الغارة على العالم الإسلامي، ص٤٨.

البريطاني ـــ صاحب الوعد المشهور ـــ رئيس الشرف في مؤتمر أدنبرة التنصيري سنة ١٩١٠م: «إنَّ المبشِّرين ـ المنصّرين ـ هم ساعدٌ لكلِّ الحكومات في أمورٍ هامَّة، ولولاهم لتعذَّر عليها أن تقاوم كثيرًا من العقبات...»، كان عمل الرهبان مكملاً لعمل العسكر كما يشير إلى ذلك أحد رواد الاستعمار الغربي أيضا: «إنّ المبشّرين هم ساعدٌ لكلّ الحكومات في أمورٍ هامة ولولاهم، لتعذّر عليها أن تقاوم كثيرًا من العقبات، ومن ثم تزامنت الاستعدادات العسكرية لغزو الأطلس مع الحملات التنصيرية للكنيسة»[١].

ويقول حاكم مستعمرة شرق أفريقيا إليوت: «إنّ فتح محطةٍ جديدةٍ للبعثة يظهر لي بصفةٍ عامةٍ أنّه امتدادٌ للنفوذ الأوروبي». ومثل هذه التصريحات ليست مقصورةً على أقوال عددٍ من السياسيين فحسب، بل إنّ المنصِّرين ردّدوا الأفكار نفسها.

كما يقول روبرت ماكس أحد المنصِّـرين من أمريكا الشمالية: «لن تتوقف جهودنا وسعينا في تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب في سماء مكة، ويقام قدّاس الأحد في المدينة»[٢].

يقول زويمر: «لقد سيطرنا من ثلث القرن التاسع عشر على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا فيها مكامن التبشير الكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية، ولقد أعددنا في ديار الإسلام شبابًا لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجنا المسلم من الإسلام، ولم ندخله في المسيحية، وبالتالي جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار، لا يهتم للعظائم ويحب الراحة والكسل. ولا يصرف همّـه في دنياه إلا الشهوات»[٣].

ويقول: «إنّ السياسة الاستعمارية لما قضت منذ سنة ١٨٨٢م على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن، ثم تاريخ الإسلام، وبذلك أخرجت ناشئةً لا هي مسلمة، ولا هي مسيحية، ولا هي يهودية ناشئة مضطربة، مادية الأغراض، لا تؤمن بعقيدة، ولا تعرف حقًّـا، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة. ويقول سيدج لانوش في كتابه (تغريب العالم): إنّ تغريب العالم كان لمدةٍ طويلةٍ جدًا ولم يكن إلّا عبارة عن عملية تنصير»[٤].

---

١. شلبي، عبد الودود، الزحف إلى مكة، ص ١٣.

٢. المصدر نفسه.

٣. فرانسوا شاتليه، الغارة على العالم لإسلامي، ص٤٩ وما بعدها ص ١٧٩ وما بعدها.

٤. الميداني، عبد الرحمن، أجنحة المكر الثلاثة، ص ١٧٩ وما بعدها.

ج. دوافع سياسية:

جاء في تقرير اللجنة الثالثة من لجان مؤتمر أدنبرج التبشيري الذي عقد عام ١٩١٠ م، ممّا يؤكّد التلاحم بين التبشير والاستعمار إذ يقول اللورد بلفور في ختام أعمال اللجنة المذكورة: «إنّ المبشّرين هم ساعدٌ لكلّ الحكومات في أمورٍ هامة، ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم العقبات، وعلى هذا فنحن في حاجةٍ إلى لجنةٍ دائمةٍ يُناط بها التوسّط والعمل لما فيه مصلحة المبشّرين، ولقد أجيب اللورد إلى اقتراحه أثناء انعقاد المؤتمر المذكور»[١].

وقد أصدر البابا نيقولا الخامس مرسومًا في عام ١٤٥٤م، يعطي البرتغاليين حقًّا في أراضي الكفرة على الساحل الغربي لإفريقيا، وأكّد ذلك البابا كالكستس الثالث عام ١٤٥٦م، ثم أصدر البابا إسكندر الثالث في عام ١٤٩٣م، مرسومًا يمنح التاج الإسباني الحق المطلق في المتاجرة مع البلاد التي اكتشفت، ووضع قيدًا، وهو أن تجلب تلك الشعوب إلى المسيحية[٢].

ولما عقد مؤتمر الكنائس المسيحية في سالونيك باليونان ١٩٥٩م، أكّد المؤتمر على مساهمة الكنائس للجاسوسية لحساب المستعمر، فطالب الكنائس في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أن تراقب خطة التنمية، فتميز بين ما يتفق وإرادة الله وبين عمل الشيطان. وفي مؤتمر دلهي ١٩٦١م قالوا: الكنيسة يجب أن تكون متأهبةً للصراع مع الدولة في أيّ وطنٍ، وتحت أيّ نظامٍ سياسي.

يقول رئيس الأساقفة لونز ماركس في عام ١٩٦٠م عن نشاط الإرساليات الذي يديره في موزمبيق: «إنّ النشاط الإرسالي يمنح البرتغال فخرًا في المنظمات العالمية السامية، ويكون سندًا قويًا للسيادة البرتغالية، والذي دفع حركة التبشير إلى التفاني في خدمة الاستعمار والتمكين لهم إيمانهم بأنّ نجاح التنصير متوقفٌ على نجاح الاستعمار وبقائه، وهو ما عبّر عنه المنصّر لورانس براون حين قال: «لم يحدث انتقالٌ واسعٌ من الإسلام إلى النصرانية في قطر ما إلّا بعد أن يخضع ذلك القطر لحكومةٍ غربيةٍ مسيحية»، ويقول المبشر هنري جب: «إن المبشّرين استغلوا جهودهم لخدمة دولهم»[٣].

هذه الجهود الاستعمارية منطلقها السياسي هو التمكين للمسحيين في البلاد من السيطرة

١. أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ٣٠.

٢. لوشاتولييه، الغارة على العالم الإسلامي، ص٧٢ وما بعدها.

٣. مجموعة مؤلّفين، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ١٥٨-٢٤٢.

على مرافق الدولة المهمة، والتي تمثّل شريان الحياة في كلّ المجتمعات، فعلى سبيل المثال لا الحصر يسيطر النصارى على التعليم في البلاد، حيث أسّسوا آلاف المدارس الابتدائية والإعدادية الحكومية والأهلية والجامعات الحكومية، فعدد الطلبة المسلمين في جامعات الحكومة الجنوبية لا يتجاوز ٢٠٪ ، والباقون من النصارى، هذا كلّه يواجه بجهودٍ ضعيفة جدًّا من جانب المسلمين في تأسيس جامعاتٍ إسلاميّة.

وعلى الجانب الإعلامي تتجلّى السيطرة شبه الكاملة على وسائل الإعلام المختلفة من راديو وتلفزيون وصحافة، أمّا من الناحية الصحية فيسيطر النصارى كذلك على كلّ المستشفيات سواء حكومية أم أهلية، فأكثر من ٩٩٪ من المستشفيات في الجنوب تحت سلطة الكنائس التي تسعى لتنصير المسلمين مقابل تلقي العلاج اللازم، ويحتكر النصارى السيطرة على الجيش والشرطة، وقد استغلّوا هذا الوضع في جمع الأسلحة والاحتفاظ بها في كنائس جنوبيةٍ على مسمع ومرأى من المخابرات النيجيرية والحكومة الفيدرالية.

وهناك الأخطار التي تهدّد أمن وسلامة المسلمين في الجنوب والتي تتركز في خطر الحركة الانفصالية في قبيلة (إيبو) الساعية لتأسيس دولة (بيافرا) التي تسعى لتأسيسها حركة (بيافرا) المدعومة من الكيان الصهيوني، ومن اللوبي الصهيوني في الولايات المتّحدة الأمريكية، وتعدّ هذه الحركة المسلمين أشدّ أعدائهم، ويتهمونهم بالتعاون المباشر مع الحكومة لإعاقة جهود إقامة دولة (بيافرا) الانفصالية.

كذلك هناك الحركة (اليوربوية) المتعصّبة المسلّحة التي أسّسها مسيحي قومي متعصّب اسمه (فاسيون)، وهي من أخطر الحركات المسلّحة في الجنوب على الإسلام والمسلمين، وتدعو إلى إحياء عبادة الأوثان، كما تحارب بشدّة تطبيق الشريعة الإسلامية في نيجيريا، وتدعو إلى إقامة دولةٍ منفصلةٍ لقبيلة (يوروبا)، وتعدّ الحركة مسلمي شمال نيجيريا أعداءها، وتعتقد أنّ الإسلام هو سبب انقسام (قبيلة يوروبا)، وقد سجّلت لهذه الحركة عدّة اعتداءات على المسلمين في الجنوب.

«والخطر الثالث يتمثّل في حركة (جيش المسيح) المسّلحة، وتعتبر هذه الحركة من أقوى الحركات المسلّحة في الجنوب، وتحتفظ بأسلحةٍ متطورةٍ منها الدبابات والصواريخ، وتلقى الدعم المالي من الكنائس النيجيرية، ومن الخارج، ومن بعض المسيحيين في الحكومة»[١].

١. مجلة المعرفة، تاريخ التنصير في نيجيريا، داود عمران ملاسا، ص ١٩.

د. دوافع اجتماعية:

اتبعت بريطانيا سياسة (فرّقْ تَسُدْ) في تمزيق الواقع الاجتماعي في نيجيريا؛ لتظلّ نيجيريا مشتتةً ومنقسمةً على نفسها اجتماعيًّا، لا تحقّق أيّ هدفٍ تنموي وتقدمي، ويمكن ربط هذه الدوافع بالحرب الأهلية في الاندماج الاستعماري عام ١٩١٤م، بين محمية نيجيريا الشمالية، ومستعمرة لاغوس، ومحمية نيجيريا الجنوبية (أعيدت تسميتها فيما بعد شرق نيجيريا). كان الهدف وراء هذا الاندماج تحقيق إدارةٍ محسنّةٍ نظرًا للقرب الشديد بين المحميات. بيد أنّ التغيير لم يأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الثقافية للشعوب ودياناتها في المجالات المختلفة. وأدّى التنافس على السلطة السياسية والاقتصادية إلى تفاقم التوترات.

لقد نالت نيجيريا استقلالها عام ١٩٦٠م، بعدد سكان ٦٠ مليون نسمة ضامةً أكثر من ٣٠٠ مجموعةٍ إثنيةٍ وثقافيةٍ مختلفة، وعندما أُنشئت مستعمرة نيجيريا، تمثّلت أكبر ثلاث مجموعاتٍ إثنيةٍ بالإيغبو الذين شكّلوا نحو ٦٠-٧٠٪ من السكّان في الجنوب الشرقي، والهوسا فولاني في خلافة صكتو الذين شكلوا نحو ٦٧٪ من السكّان في الجزء الشمالي من الإقليم، وشعب يوروبا الذي شكّل ٧٥٪ من السكّان في الجزء الجنوبي الغربي.

رغم أنّ لهذه الجماعات موطنها الخاصّ، فقد تشتّت الشعب بحلول الستينيّات في جميع أنحاء نيجيريا مع تمثيل المجموعات الإثنية الثلاثة تمثيلاً كبيرًا في المدن الكبرى. عندما اندلعت الحرب في عام ١٩٦٧، كان مايزال هناك ٥٠٠٠ فرد من الإيغبو في لاغوس. خضعت جماعة هوسا فولاني شبه الإقطاعية والمسلمة في الشمال تقليديًا لحكم تسلسلٍ هرميّ إسلاميّ محافظٍ يتألّف من أمراء يدينون بدورهم بالولاء لسلطانٍ أعلى. وعدّ هذا السلطان مصدرًا لكلّ السلطة السياسية والسلطة الدينية.

تألّف أيضًا نظام يوروبا السياسي في الجنوب الغربي، كنظام هوسا فولاني، من سلسلة من الملوك أو الأوبا. بيد أنّ ملوك يوروبا كانوا أقلّ أوتوقراطية من نظرائهم في الشمال. سمح نظام يوروبا السياسي والاجتماعي بقدرٍ أكبر من الحراك التصاعدي على أساس الثروة المكتسبة بدلاً من الملكية الموروثة. وعلى النقيض من المجموعتين الأخريين، عاش الإيغبو والمجموعات الإثنية في دلتا النيجر في الجنوب الشرقي في معظم الأحيان ضمن مجتمعاتٍ مستقلةٍ ذاتيًا ومنظمة ديمقراطيًا رغم وجود (إزي) أو ملك في العديد من المدن القديمة كمملكة نري. سيطرت المملكة

في أوجها على أغلب أراضي الإيغبو، بما في ذلك النفوذ على أراضي شعب أنيوما، ومدينة أروتشوكو (التي تحكمت بعبودية الإيغبو) ومدينة أونيتشا. خلافًا للمنطقتين الأخريين، اتُخذت القرارات داخل مجتمعات الإيغبو من قِبل جمعيةٍ عامةٍ يشارك فيها الرجال والنساء على حدٍّ سواء. عكست المناهج والهياكل السياسية المختلفة، وأنتجت أعرافًا وقيمًا متشعبة.

إنّ عوام الهوسا فولاني الذين لا يتفاعلون مع النظام السياسي إلّا من خلال رئيس قريةٍ يعينه الأمير أو أحد مرؤوسيه لم يروا القادة السياسيين مؤهّلين للسلطة أو إحالة القرارات السياسية إليهم. وكما هو الحال مع العديد من النظم الدينية السلطوية والسياسية الأخرى، مُنحت مناصب قيادية للأشخاص الراغبين في الخضوع والولاء للرؤساء. تمثّلت إحدى الوظائف الرئيسة لهذا النظام السياسي ضمن هذا السياق بصون القيم المحافظة، ما جعل العديد من الهوسا فولاني ينظرون إلى الابتكارات الاقتصادية والاجتماعية على أنّها تخريبية أو تدنيسية. على النقيض من الهوسا فولاني، كثيرًا ما شارك الإيغبو وغيرهم من البيافريين مباشرة في القرارات المؤثّرة على حياتهم. فقد تمتعوا بوعيٍ حيوي بالنظام السياسي، وعدّوه أداةً لتحقيق أهدافهم الشخصيّة. أما المكانة فقد اكتُسبت من خلال القدرة على التحكيم في المنازعات التي قد تنشأ في القرية، وعبر كسب الثروة بدلاً من وراثتها. كان شعب الإيغبو ضحيةً لتجارة الرقيق في المحيط الأطلسي؛ وفي عام ١٧٩٠، أفيد بأنّه من بين كلّ ٢٠ ألف شخصٍ بيعوا سنويًا من مملكة بوني، كان ١٦ ألفًا منهم من الإيغبو. جرى تكريس هذه الاختلافات المستمدة من التقاليد، ولربما عززتها الحكومة الاستعمارية في نيجيريا. في الشمال، وجدت الحكومة الاستعمارية أنّه من الملائم لها أن تحكم بشكلٍ غير مباشرٍ من خلال الأمراء، وبالتالي إدامة النظام السياسي السلطوي للسكان الأصليين بدلاً من تغييره.

«استُبعد المبشّرون المسيحيون من الشمال، وبالتالي بقيت المنطقة مغلقةً تقريبًا أمام النفوذ الثقافي الأوروبي. وعلى النقيض من ذلك فإنّ أغنى أفراد الإيغبو كثيرًا ما كانوا يرسلون أبناءهم إلى الجامعات البريطانية ويفكرون في إعدادهم للعمل مع البريطانيين. وخلال السنوات التالية، حافظت الإمارات الشمالية على مؤسّساتها السياسية والدينية التقليدية مع تعزيز هيكلها الاجتماعي. وفي وقت الاستقلال في عام ١٩٦٠، كان الشمال المنطقة الأكثر تخلّفًا في نيجيريا دون منازع. فقد بلغ معدل الإلمام بالقراءة والكتابة باللغة الإنجليزية ٢٪، مقارنةً بنسبة ١٩,٢٪ في شرق نيجيريا»[١].

١. مجلة المعرفة، تاريخ التنصير في نيجيريا، داود عمران ملاسا، ص ١٩.

وكان معدل الإلمام بالقراءة والكتابة بلغة العجمي (اللغات المحلّية بالأبجدية العربية) أعلى بكثيرٍ، والتي تم تعلمها لارتباطها بالتعليم الديني. تمتع غرب نيجيريا أيضًا بمستوى أعلى بكثيرٍ من الإلمام بالقراءة والكتابة؛ لأنّه كان أوّل جزءٍ من البلد يتصل بالتعليم الغربي، وأنشأ برنامجًا للتعليم الابتدائي المجاني في إطار حكومة المنطقة الغربية قبل الاستقلال، وفي الغرب سارع المبشّرون إلى إدخال أشكال التعليم الغربية. ونتيجةً لذلك، كانت جماعة يوروبا الأولى في نيجيريا في اعتماد المعايير الاجتماعية البيروقراطية الغربية. وشكّلوا الطبقات الأولى من الموظّفين المدنيين والأطباء والمحامين وغيرهم من الفنيين والمهنيين الأفارقة، وأُدخل المبشّرون في وقتٍ لاحقٍ إلى المناطق الشرقية؛ لأنّ البريطانيين واجهوا صعوبةً في فرض السيطرة الصارمة على المناطق ذات الحكم الذاتي العالي، وقد دفع الضغط السكّاني مقترنًا بالتطلّعات إلى الأجور النقدّية بآلاف الإيغبو إلى الانتقال من موطنهم نحو أجزاءٍ أخرى من نيجيريا بحثًا عن العمل، وبحلول الستينيّات، كانت ثقافة الإيغبو السياسية أكثر توحّدًا، وكانت المنطقة أكثر ازدهارًا نسبيًّا، إذ كان التجّار والنخب الملمون بالقراءة والكتابة نشطين ليس فقط في شرق إيغبو تقليديًا، إنّما في جميع أنحاء نيجيريا. بحلول عام ١٩٦٦، كانت الاختلافات الإثنية والدينية بين الشماليين والإيغبو قد اقترنت بتصنيفات طبقية إضافية بمقتضى التعليم والطبقة الاقتصادية»[١].

وكانت هناك دوافع اجتماعية أخرى تضاف إلى ماتقدّم تشمل الفائض السكاني في بعض الدول، ورغبة الحكومات في توجيه هذا الفائض إلى بلدانٍ جديدة، وتوفير فرص عملٍ أفضل للمواطنين؛ لذلك فإنّ الإستعمار في إفريقيا تمكّن من بناء أزمةٍ أزليةٍ ما زالت تدفع ثمنها الشعوب السمراء إلى هذا اليوم نتيجةً للتقسيمات المتنافرة، فكانت الإنقلابات العسكرية والتنظيمات الإرهابية والمافيا وضعف المنظومة الإقتصادية والسياسية والفقر المدقع هي مصير الدول الإفريقية.

الخاتمة

بهذا نصل إلى نهاية هذه الورقة التي ألقت الضوء على ما يأتي:

إنّ الاستعمار الغربي قسّم نيجيريا إلى قسمين رئيسين، الجانب الجنوبي والجانب الشمالي، وقد كان الشمال النيجيري مسرحًا للاستعمار البريطاني، واختلف عن الجنوب النيجيري في العديد من العوامل:

١. المصدر نفسه.

العامل الجغرافي: حيث كانت المنطقة الشمالية تبعد عن الساحل الذي تجاوره دول الجنوب من أمثال لاغوس وغيرها.

العامل الديني: إنّ المنطقة الشمالية متجذرةٌ في الدين منذ ما يربو على خمسمائة عام، أمّا المنطقة الجنوبية فمنطقة وثنية في أغلب الأحوال؛ ممّا جعلها لقمةً سائغةً للاستعمار الأجنبي.

العامل الحضاري: وصلة هذا العامل بالذي سبقه واضحة؛ إذ إنّ الدين الذي اكتسح الشمال النيجيري ترك بصمةً حضاريةً على سكّان تلك المنطقة؛ ممّا جعلهم على قدرٍ كبيرٍ من التحضّر الذي يجعلهم قادرين على التمييز بين الغث والسمين، والنافع والضار، والأصيل والدخيل من الثقافات. وجعل لهم درعًا ومناعةً من كلّ ما يواجهونه في حياتهم، إضافةً إلى البديل الحضاري الذي يقدّمه لهم لقاء ما تقدّمه لهم ثقافة المستعمِر الجوفاء التي يرونها في الغالب حياة رذيلة يعافونها، ويتبرّأون منها، ومن ثم كانت مواجهة الاستعمار للشمال النيجيري مسلّحة، وقامت منهجيته لمحو الثقافة الإسلامية على أساس طمس مظاهر الحضارة فيها، بدأ باللغة العربية التي هي وعاء الثقافة والحضارة، مرورا بالإرساليات التبشيرية التي سعى فيها الاستعمار لمحاربة الدين واستبداله بالديانة النصرانية، وانتهاءً بالارسترقاق التي قامت على تغذية شركاته بالعمال إبّان نشوء موجة الثورة الصناعية في أوربا.

وتوصلت الورقة إلى النتائج الآتية:

شمالي نيجيريا منطقةٌ متنوعةٌ عرقيًا ودينيًا، إلّا أنّها منطقة ذات أغلبيةٍ ساحقةٍ من المسلمين، تهيمن الهوسا والفولاني والنوبي على معظم الجزء الشمالي الغربي والشرقي من البلاد، والهوسا فولاني هم في الغالب من المسلمين، ويلتزم جزءٌ صغيرٌ من سكّان الهوسا أيضًا بالدين القديم للروحانية، بالإضافة إلى مملكة كانم برنو التي سبقت ممالك هوسا إلى الإسلام، التي تمثّل أقصى الشمال الشرقي لنيجيريا (محور البحث).

ووضع شمالي نيجيريا قبل الاستعمار كان مستقرًّا ومتحضّرًا بحضارة الإسلام، حيث الممالك الإسلامية كانت قائمةً بكلّ مظاهرها الحضاريّة على نمط الخلافة الإسلامية، والمراسلات والمراسيم الإدارية.

أما عن تاريخ الاستعمار في نيجيريا فإنّ المصادر تشير إلى حقبةٍ في تاريخ نيجيريا حكمت فيها بريطانيا منطقة غرب إفريقيا منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى تحقق الاستقلال في عام

١٩٦٠م.

أمّا عن دوافع الاستعمار، فإنّ البحث توصّل إلى أنّ ثمّة دوافع اقتصادية، وثقافية دينية، وسياسية، واجتماعية، انطلقت من الواقع البريطاني في شمالي نيجيريا، ولم تنفّذ إلّا بعد دراسةٍ عميقةٍ لمقتضيات المصالح البريطانية، فالتقدّم الصناعي الذي حازته بريطانيا من القرن التاسع عشر، بينما كانت بقية دول أوروبا في زحمة حوادثها الخاصّة هو الذي وجّه أنظار البريطانيين نحو الخارج.

وتراوحت السياسة الاستعمارية لبريطانيا بين منهجين، حيث انتهجت سياسة السلم في المناطق الشمالية من سيراليون وغانا وبعض بقاع اليوروبا في نيجيريا. وانتهجت سياسة القوة في مناطق أخرى خاصّةً في نيجيريا الشمالية.

المصادر والمراجع

١. طرخان، إبراهيم، دولة مالي الإسلامية القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتب، ١٩٨٣م

٢. الربابعة، حسين محمد، الإسلام في النيجر بين الماضي والحاضر، الأردن جامعة البلقاء التطبيقية.

٣. بغدادي، عبد السلام ابراهيم داود، نشأة الوجود العربي الإسلامي في وسط إفريقيا، تشاد نموذجًا، بغداد: جامعة بغداد ٢٠١٠م.

٤. السيد الشامي، المسلمون في مواجهة التبشير في نيجيريا، بيروت دار مكتبة الحياة، ٢٠٠٤م.

٥. الجندي، أنور، **الإسلام في وجه التغريب**، القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٩١م.

٦. الميداني، عبد الرحمن، أجنحة المكر الثلاثة: الاستشراق - التبشير - الاستعمار، دمشق: دار القلم الطبعة الأولى.

٧. لو شاتولييه، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة محب الدين الخطيب، بيروت، د. ت: مكتبة أسامة بن زيد.

٨. المنصوري، أحمد، كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر، تحقيق محمد بن لحسن، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، رقم ١٣١.

٩. شلبي، عبد الودود، الزحف إلى مكة، حقائق ووثائق عن مؤامرة التنصير فى العالم الإسلامي، القاهرة: دار الفتح للأعلام العربي، ٢٠٠٣.

١٠. عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، التنصير ومحاولاته في الخليج العربي، الدار العربية للموسوعات - الرياض ١٤٢٧هـ.

١١. النملة، علي بن إبراهيم الحمد، التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته دار الصحوة، مصر ١٤١٩م.

١٢. أ د شاتلييه، ترجمة مساعد اليافي، ومحب الخطيب، الغارة على العالم الإسلامي، المطبعة السلفية عام ١٣٣٠ هـ.

١٣. أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، القاهرة، ط١، مكتبة وهبة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١٤. مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، جدة المكتبة العصرية ٢٠٠٣م.

١٥. تاريخ التنصير في نيجيريا، مجلة المعرفة، ١١ يونيو ٢٠١٩م.

١٦. مجلة الإسلام اليوم، إصدار منظمة الإيسيسكو، العدد ١٢، السنة ٢، رجب ١٤٠٤.

17. John M. Carland, The Colonial Office and Nigeria (1985).

18. Crown Colony Government in Nigeria and elsewhere in the British Empire was autocratic government. Officials at the Colonial Office and colonial governors in the field never pretended otherwise. In fact, autocratic, bureaucratic rule was the true legacy of British colonial government in Africa."

19. obin Hermann, «Empire Builders and Mushroom Gentlemen: The Meaning of Money in Colonial Nigeria», International Journal of African Historical Studies 44.3, 2011.

20. "Nigeria - Independent Nigeria". Encyclopedia Britannica. Archived from the original on 2019-11-10. Retrieved 2020-01-22.

21. Ken Swindell, «The Commercial Development of the North: Company and Government Relations, 1900–1906», Paideuma 40, 1994.